



## التأليف النحوي وفكر التيسير.

أ. أحمد درويش

أستاذ مساعد، قسم اللغة والأدب العربي،

كلية الآداب واللغات، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر.

### ملخص المقال:

من بين شروط أية نظرية علمية، واللغوية بالأخص شرط التماسك، الذي من مظاهره حسن تصنيف أجزاء الموضوع الواحد، ثم حسن ترتيب ذلك الموضوع مع بقية مواضيع العلم المدروس، لدرجة أن قليل الزاد العلمي يستطيع أن يجد مكان مطلبه. من هنا التساؤل: هل لترتيب موضوعات النحو تماسك؟ إن كان نعم!! ما أمر دعاة التيسير؟!

إن انشغال الدارسين بموضوع التيسير في النحو ليس وليد العصر الحديث، ولا نتيجة ثورة ابن مضاء القرطبي (592هـ) العلمية، وإن كانت هذه الأخيرة تشكل الدليل الذي سار عليه دعاة التجديد في هذا العصر، حين انبروا إلى درس العربية يريدون إيضاح ما فيه من أودٍ وإصلاحه.

### مقدمة:

تعود فكرة التيسير إلى ما قبل القرن السادس الهجري، أي قبل ظهور آراء ابن مضاء (592هـ)، ومن أمثلة ذلك، جهود عبد القاهر الجرجاني (471 هـ أو 474 هـ) الذي راعى حال المتلقي في تأليفه، فهو يقول في كتابه (الجمل) " هذه جمل رتبته ترتيبا قريب المتناول، وضمنتها جميع العوامل، تهدّب ذهن المبتدئ وفهمه، وتعريفه سمّت

الإعراب ورسمه..."، ويقول في كتابه (العُمد)<sup>(1)</sup> "هذه جمل من القول في التصريف"<sup>(2)</sup> قاصداً بلفظ<sup>(3)</sup> الجمل معنيين اثنين:

الأول منهما جمع الأبواب النحوية بنوع من الترتيب اعتباراً للمعنى اللغوي للفظ الجملة وهو "جماعة كل شيء بكماله"<sup>(4)</sup>، وثانيهما، التركيز في عملية الجمع والتأليف على ذكر أسس علم النحو وقوانينه، و"عُمد فن التصريف"<sup>(5)</sup> لأن الجمل لغة تعني أيضاً "الجبل الغليظ"<sup>(6)</sup> الذي هو ضمان قيد الشيء ومسكه.

ومن قبل أشار الزجاجي (337هـ) إلى مراعاة حال المتعلم أثناء التأليف في النحو، حيث علّل تركه لبعض المصطلحات، وشرحه لبعضها الآخر بأنه "تقريب على المبتدئ"<sup>(7)</sup>، وبهذا بُرّرت كثرة الأمثلة، وبساطة اللغة في كتابه (الجمل)، فكتب النحو "لا توضع كلها لطبقة واحدة من الناس، فلأن كان كتاب سيبويه وأمثاله يصلح للشيوخ الذين تعمقوا العلم... فكتب الزجاجي وأمثاله لينفع المبتدئين في النحو، والمتطلعين إلى تعلّمه"<sup>(8)</sup> بتقريب الشواهد، وتبسيط لغة هذا العلم.

إن تراث العربية ليزخر بنماذج عدة للتيسير، لاسيما بعد اكتمال بناء هيكل نظام اللغة، من ذلك شروح شواهد المدونات الكبرى في اللغة، كشرح أبيات سيبويه

<sup>1</sup> - الجمل: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق علي حيدر، دمشق، سوريا، ص: 03.

<sup>2</sup> - العمد، كتاب في التصريف يتميز بالإيجاز.

<sup>3</sup> - العمد، كتاب في التصريف، عبد القاهر الجرجاني، تح: البدرائي زهران، دار الآفاق العربية، ط: 1، 2008، ص: 111.

<sup>4</sup> - لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، ط: 6، 1997، ج: 11، مادة (ج م ل).

<sup>5</sup> - العمد، هامش، ص: 111.

<sup>6</sup> - لسان العرب، ج: 11 مادة (ج م ل).

<sup>7</sup> - الجمل، أبو القاسم الزجاجي، تح: الشيخ ابن أبي شنب، الجزائر، 1926، ص: 90.

<sup>8</sup> - الزجاجي حياته وآثاره، مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط: 2، 1984، ص: 24.

لأحمد بن محمد النحاس (338هـ) الذي يقول "...لا أحل بمهم من إعرابها (شواهد سيبويه) وأقسّمها أبواباً ليأثلف نظمها ويقرّب فهمها..."<sup>(1)</sup>، وبهذا يسير الشرح وحسن التأليف جنباً إلى جنب في تحقيق الفائدة، وتيسير الفهم.

تعد كتب المختصرات أهم نموذج من نماذج التيسير، نظماً كانت أم نثراً، لتميّزها بدقة التأليف فهي "ترمي إلى إعطاء الطلاب من النحو ما لا يسع جهله"<sup>(2)</sup> بتركيزها على ذكر القوانين العامة، وأسس هذا العلم وقواعده، ومن هنا لا تؤاخذ بجفاء المادة ومعيارياتها، بل يجب أن يحمد صنيعها باعتبار الغاية التي ألفت لأجلها.

لا مسافة البحث، ولا موضوعه، يسمحان باستقصاء كل نماذج التيسير عند نحاتنا الأوائل، لكن منهج البحث حتم ذكر بعض الجهود التي أردنا منها الإشارة إلى كونها لم تشتهر شهرة آراء ابن مضاء القرطبي في هذا المجال، والتي تعود إلى أسباب كتبت لها بعد الصيت الذي هي عليه، وهذه الأسباب هي:

- 1- مخالفة ابن مضاء القرطبي لما كان شائعاً في عرف الدراسات اللغوية، فهو "...أمة وحده بين النحاة..."<sup>(3)</sup>، وآراؤه في العامل والعلة والقياس شكلت قطبا يناقض ما تعورف عليه، رغم عدم صحتها كما أكد ذلك غالبية الدارسين، قديماً وحديثاً.
- 2- اقتران ثورته العلمية في النحو بثورة الموحدين في السياسة والفقه على كل ما هو مشرقي، إذ حمل خلفاء هذه الدولة الناس على الأخذ بالظاهر من القرآن والحديث، وأرادوا محو مذهب الإمام مالك وإزالته من المغرب<sup>(1)</sup>.

<sup>1</sup> - شرح أبيات سيبويه، أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، تح: زهير غازي زاهد، عالم الكتب، لبنان، ط1، ص 28.

<sup>2</sup> - تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، محمد المختار ولد أباه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2008، ص: 564.

<sup>3</sup> - أصول النحو العربي، محمد عيد، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 2006، ص: 06.

3- تقاطع آرائه في الدراسة اللغوية مع كثير من مبادئ التحليل الوصفي للغة في العصر الحديث، مما جعل المتأثرين بمنهج الوصف يأخذون بآرائه لاسيما دعوته إلى إلغاء التعليل ورد القياس والتأويل حتى قال أحدهم بأن النحاة التقليديين بعده "لم يقدروه...حق قدره، فنسي اسمه...حتى كان عصرنا الحاضر فعاد الرجل إليه (الدرس النحوي) من وراء القرون مهيبا جليلا، ليأخذ مكانه ومكانته في الدرس اللغوي الحديث" <sup>(2)</sup> وشكلت آراؤه المادة التي يأخذ بها من تأثر بالمنهج الوصفي ودعا إليه <sup>(3)</sup>.

إنني لا أريد الحديث في منهج دراسة اللغة كما قد يظهر من أخذي في موقف الوصفيين من ابن مضاء، لكنني رمت بذلك الإلماع إلى أن إصلاح منهج دراسة اللغة هو رأس مطالب دعاة التيسير، فمنهج القدامى نتج عنه كثير من مظاهر التعقيد في دراسة النحو، والتأليف فيه، ومن هذه المظاهر سوء التبويب التي خصصنا لها هذا المقال.

أخذ دعاة التيسير في النحو الدراسات القديمة بكثير من المآخذ منها سوء التبويب "ولعل من أبرز ما يلاحظ في منهج الدراسة النحوية ما يمكن أن يُسمَّى بسوء التبويب الذي يعمل على تشتيت ذهن وبعثرة الفكرة، بحيث تضل في أجزاء الموضوع المفرقة هنا وهناك، حتى يتعسر على الدارس أن يجمع شتاته ويُثَقِّنَ فهمه، ويحيط به إحاطة مدركة..." <sup>(4)</sup>، ومن المباحث التي تأثرت بهذا العيب الأفعال خاصة، كما سيظهر لاحقا.

<sup>1</sup> - ينظر تاريخ آداب العرب: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:1، 2000، ج:3، ص: 222.

<sup>2</sup> - أصول النحو العربي، ص 13.

<sup>3</sup> - مثل:- تمام حسان، ينظر اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، ط4، 2001، ص: 55....58.

- شوقي ضيف، مقدمة الرد على النحاة لابن مضاء، دار المعارف، ط 4، مقدمة التحقيق، ص: 48.

- أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، 1988، ص: 148-149.

<sup>4</sup> - نحو التيسير، أحمد عبد الستار الجوارى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن: 2006، ص: 55.

إذا كان المأخذ السابق يُفَرِّقُ الموضوع الواحد على أبواب من العلم كمبحث الأفعال بين الصرف في الأفراد وبين النحو في التركيب، وبينهما وبين البلاغة في المعاني، فإن هذا المبحث، أي الأفعال، يفرق في النحو على أبواب شتى.

"ويتحكم في هذا التفريق منطق بعيد عن طبيعة الدراسة اللغوية" <sup>(1)</sup> كتقليد منهج الخليل، والتأثر بمنهج الفقهاء، وغيرها مما أساء إلى طبيعة الدراسة اللغوية كما يزعمون <sup>(2)</sup>.

إن الفعل - مثلاً - بعد دراسته في باب المعرب والمبني، يعاد بحث أثره في باب الفاعل والمفاعيل، ثم وبعد ذلك يُخَصَّصُ مبحث جديد لإعراب الفعل بعد دراسة الأسماء بأحوالها، وبين كل هذا، "مسافة شاسعة يكاد الدارس ينسى ما تلقاه فيها، وتمحى من ذهنه الصورة الأولى" <sup>(3)</sup> التي سبق وأن تعلمها، وكأن قوانين هذه اللغة لا رابط بينها، فإذا عرض هذا، نسي ذلك.

ومن هذه الغاية، غاية الاقتصاد في الجهد الذهني عند المتعلم، انطلق شوقي ضيف في عرض أحد أسس تجديده للنحو حيث اقترح "إعادة تنسيق أبواب النحو بحيث يستغني عن طائفة منها برّد أمثلتها إلى الأبواب الباقية حتى لا يتشتت فكر دارس النحو في كثرة من الأبواب توهن قواه العقلية" <sup>(4)</sup>، فرد كان وأخواتها إلى باب الحال، وضم (كاد وأخواتها)، و(ظن وأخواتها) إلى باب المفعول به، وغير ذلك مما هو مشروح في مقدمة تحقيقه لكتاب (الرد على النحاة) لابن مضاء، وفي كتابه تجديد النحو.

إذا كان من مطالب التيسير، إعادة تنسيق الأبواب النحوية كما قيل، فهذا يعني أن ترتيب القدامى لأبواب النحو فيه شيء من الخلل، جعل هذا العلم صعباً يشتكي من تعقیده حتى المختصون، ومن هذا يطرح السؤال التالي: هل لترتيب القدامى أسس معرفية

<sup>1</sup> - م ن، ص: 56.

<sup>2</sup> - ينظر المرجع نفسه، ص: 63-64-65.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص: 56.

<sup>4</sup> - تجديد النحو، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط 05، ص: 04.

اعتمدوها في تنسيق مواضيع النحو؟ أم أنهم صدروا في ذلك عن مجرد التقليد أو عن سير بلا دليل؟

قبل الإجابة، لا بأس من عرض أمودجين من تأليف القدامى لأبواب النحو، أحدهما: منهج ابن هشام (761هـ) لكونه يعكس قمة التطور في تصنيف أبواب هذا العلم، وثانيهما عمل ابن السراج (316هـ) في أصوله لكونه يشكل بداية التنظير للدرس النحوي، بعد أن جمعت مواده، وضبطت قواعده.

#### مع ابن هشام:

إن التنويع في منهج التأليف عند ابن هشام (761هـ) لا يكاد يخفى على دارس وذلك لاعتباره حال المتلقي أثناء الكتابة ففي شذوره<sup>(1)</sup> مثلاً يقول: " وعمدت فيه إلى لف المباني والأقسام...وقصدي بذلك تدريب الطالب وتعريفه السلوك إلى أمثال هذه المطالب<sup>(2)</sup> "، فجعل كتابه يبدأ بأنواع الكلمة مفردة، وعلامة كل منها، بما أن منهج النحو هو الاستقراء، ثم شرع في ذكر أحوال الأسماء الإعرابية، وبعدها إعراب الفعل، لأصالة الاسم في الإسناد.

لم يدع ابن هشام تصنيفه لأبواب النحو دون تبرير أو تعليل مما يعكس خبرة منهجية في ضبط العلوم، إذ لما شرع في ذكر المعربات قال " وبدأت منها بالمرفوعات لأنها أركان الإسناد"<sup>(3)</sup> باعتباره أصل ومعمد أي كلام.

وبعد المرفوعات عاج على باب المنصوبات وعلل ذلك بقوله " وثبتت بالمنصوبات لأنها فضلات غالباً، وختمت بالمحرورات لأنها تابعة في العمدية والفضلية لغيرها، وهو

<sup>1</sup> - شذور الذهب في معرفة كلام العرب.

<sup>2</sup> - شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، جمال الدين بن هشام الأنصاري، تح حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، لبنان ط1، 1988، ص: 14.

<sup>3</sup> - م ن، ص: 177.

المضاف<sup>(1)</sup> الذي قد يكون عمدة فيتبعه المضاف إليه في ذلك لقولنا (قام غلام زيد): فغلام عمدة لأنه فاعل وبالتالي كان (زيد) عمدة لأنه تابع لعمدة، وقد يكون المضاف فضلة فيتبعه المضاف إليه في ذلك أيضا كقولنا (رأيت غلام زيد)، باعتبار المضاف وهو (زيد) فضلة، "والتابع يتأخر عن المتبوع"<sup>(2)</sup>، وللعلة هذه جعل ابن هشام التتابع في آخر كتابه.

هكذا رتب ابن هشام أبواب كتابه، وهكذا رتب موضوعات كل باب، ففي باب المرفوعات الذي احتوى على مبحث الفاعل ونائبه، والمبتدأ وخبره، والنواسخ بأنواعها، والفعل المضارع باعتبار حركته الأصلية وهي الرفع بالضممة، ومن كل هذا بدأ... بالفاعل اعتباراً لعامله اللفظي وهو الفعل أو شبهه، في حين العامل في المبتدأ هو الابتداء وهو عامل معنوي، والعامل اللفظي أقوى من العامل المعنوي<sup>(3)</sup>.

وهناك سبب آخر دفع ابن هشام إلى تقديم الفاعل عن المبتدأ، وهو أن رفع الفاعل جاء للفرق بينه وبين المفعول به، وهذه علة الإعراب كله، ولهذا استحق الفاعل خاصية الأصالة، وكان غيره وهو المبتدأ فرعاً عليه.

أما المنصوبات فد حصرها في خمسة عشر نوعاً، استهلها بالمفعول به، مخالفاً بذلك ترتيب الزمخشري (538هـ) الذي قدم المفعول المطلق<sup>(4)</sup>، وعلة كل ذلك أن المفعول به أحوج إلى الإعراب، لأنه الذي يقع بينه وبين الفاعل الالتباس<sup>(5)</sup>، ومن هذا يظهر مدى عنايته بالمعنى في التصنيف، وإن كان ظاهر التقسيم يُظهر غير ذلك حيث تبدو

1 - م ن، ص ن.

2 - ينظر م ن، ص ن.

26- ينظر الفصل في صنعة الإعراب، محمود بن عمر الزمخشري، تح: علي أبو ملحهم، مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1993، ص: 55.

27- شرح شذور الذهب، ص 234.

28 - معجم الأدباء، ياقوت الحموي، نشر وطبع الخلي، ج1، ص: 59.

حركة الشكل بادية للعيان حين قسم كتابه إلى المرفوعات والمنصوبات والمجزورات والمجزومات ثم ما يتبع ذلك.

#### مع ابن السراج:

يتردد في كتب تراجم النحاة وتاريخهم مقولة "إن النحو كان مجنونا حتى عقّله ابن السراج"<sup>(1)</sup>، وكلمة (مجنونا) تحمل أكثر من دلالة<sup>(2)</sup> نذكر منها تفرُّق مسائل النحو إما تشتتا في كتب الأمالي والمجالس كمجالس ثعلب مثلاً، وإما تفرقا لانعدام التنظيم والترتيب كما في كتب معاني القرآن وإعرابه في مصنفات الأخفش، والفراء، والزجاج، فجاء ابن السراج (316 هـ) وأزال هذا الخلل، بضبطه منهجية ترتيب موضوعات النحو، وفاق بذلك المبرّد (285 هـ) صاحب المقتضب الذي قيل فيه إنه "لم يراع ترتيباً منهجياً، بل بقي في أبوابه كثير من التداخل مثل ماهو في كتاب سيبويه"<sup>(3)</sup> بينما امتاز ترتيب ابن السراج بمنهجية دقيقة وُسِّمَتْ بالمنطقية<sup>(4)</sup>.

لقد ميّز ابن السراج بين مستويي الدرس النحوي، مستوى الأصول أو القواعد أو القواعد العامة، ومستوى العلل في التحليل<sup>(5)</sup>، ورتب موضوعات هذا العلم باعتبار فكرة الإسناد، آخذاً في الحسبان "كل حالة نظرية ممكنة، كما يمكن التنبؤ بمكانها"<sup>(6)</sup> في النظام الذي اهتمدى إليه والذي يبنى على طريقة الأقسام وأقسام الأقسام مما يُسهِّل على الباحث معرفة مواطن الموضوع الذي يبحث فيه.

<sup>29</sup> - ينظر تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، ص: 156.

<sup>30</sup> - م ن، ص: 157.

<sup>31</sup> - ينظر م ن ص 157 والمدارس النحوية: شوقي ضيف، دار المعارف، ط: 8، ص: 140.

<sup>32</sup> - ينظر: الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن السراج، تح: عبد الحسين الفتلي،

مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط4، 1999، ج1، ص: 35.

<sup>33</sup> - التراث اللغوي العربي، تأليف يوهانس جيوم، كولوغلي، تر: محمد حسين عبد العزيز وكمال شاهين، دار

السلام، مصر، ط1، 2008، ص: 39.

<sup>6</sup> - م ن، ص: 40.



فبعد أن تحدث في أقسام الكلمة بدأ بالمرفوعات ثم المنصوبات ثم المجرورات ثم التوابع ثم إعراب الفعل فباب التقديم والتأخير وبعده أبواب الصرف مقسما كل باب إلى أقسام صغرى، حتى بات "هذا النظام الذي وضعه ابن السراج... هو القاعدة العامة لكل الأعمال التي أتت بعده"<sup>(1)</sup>.

**خلاصة المقال:** إن ترتيب نحاتنا الأوائل لموضوعات مصنفاتهم، لاسيما بعد اكتمال بناء هيكل نظام هذه اللغة، لم يكن سببا من أسباب صعوبة النحو وتعقيده، كما كل ما ي الأمر هو سوء التعامل مع ذاك التنظيم في طرق التعليم، فترتيب القدامى له أسسه التي تجعل منه منهجا، كما أن للمحدثين أسسا منهجوا بها طرق تأليفهم لأبواب النحو. وخلاصة القول إن المتتبع لمسار التجديد في النحو العربي يستنتج أن منهج القدامى قد بُني في تأليف موضوعات النحو على خاصية الإسناد التي سخرت حركات الشكل في التمييز بين الأبواب، مع اعتبار ميزة الأكثر استعمالا والأقوى وجودا، وهو الاسم في عملية الترتيب، بينما ركز المحدثون على ضرورة التبويب على أساس نوع الكلمة كما يتجلى من حديثهم عن الفعل، أو على أساس النظر إلى الشكل كالذي يبدو من تحديد شوقي ضيف.

#### مصادر و مراجع المقال:

1- أصول النحو العربي، محمد عيد، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 2006.

- 2- الأصول في النحو: أبو بكر محمد بن السراج، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط4، 1999، ج1.
- 3- البحث اللغوي عند العرب: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، 1988.
- 4- تاريخ آداب العرب: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ج3.
- 5- تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، محمد المختار ولد أباه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2008.
- 6- تجديد النحو، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط05.
- 7- التراث اللغوي العربي: يوهانس جيوم، كولوغلي، تر: محمد حسين عبد العزيز وكمال شاهين، دار السلام، مصر، ط1، 2008.
- 8- الجمل: أبو القاسم الزجاجي، تح: الشيخ ابن أبي شنب، الجزائر، 1926.
- 9- الجمل: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق علي حيدر، دمشق، سوريا.
- 10- الزجاجي حياته وآثاره، مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1984.
- 11- شرح أبيات سيوييه، أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، تح: زهير غازي زاهد، عالم الكتب، لبنان، ط1.
- 12- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، جمال الدين بن هشام الأنصاري، تح: حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1988.
- 13- العمدة: عبد القاهر الجرجاني، تح: البدرأوي زهران، دار الآفاق العربية، ط1، 2008.
- 14- لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، ط6، 1997، ج11.
- 15- معجم الأدباء: ياقوت الحموي، نشر وطبع الحلبي، ج1.



- 16-المفصل في صنعة الإعراب: محمود بن عمر الزمخشري، تح: علي أبو ملح، مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1993.
- 17- نحو التيسير: أحمد عبد الستار الجواري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن: 2006.